رسالة فتاة من الشمال

قصة بقلم جمال الغيطاني

.. عبرت الارض الساخنة الصفراء .. حرارة تخترق نعل الحذاء الخفيف وتؤلم باطن قدمي . لم يقترب موعد الغداء . عندما تتجاز الشمس منتصف السماء وتميل عنه ، عندما يزحف الظل الرمادي من اول عنبر للنوم متسلقا جدران العنبر الثاني فالثالث حتى الرابع . ينطلق نفير الغداء . بجوار جدار حجري قصير لبناء فكروا يوما في اقامته ثم عدلوا جلس اربعة زملاء .

قلت : هل انتهت مواعيد العمل ؟

قالوا : بطالة قصيرة .

شعرت بمذاق شاحب لابتسامة نامت فوق شفتي ..

قالوا : اخبرنا عن اصناف الاكل عندك ..

قلت : لا داعي بالتأكيد عرفتموها وأنتم تشمون الرائحة ..

احسست بالشمس فوقي وفوقهم وفوق الدنيا تجفف طعم الهواء في انفي . سألوني عما اذا كنت ذهبت الى مكتب الضابط ؟ قالوا لك خطاب .. ارتخت الشعيرات القصيرة لاهداب عيني وازدادت الظلال قتامة والاسوار ارتفاعا واحاط صدري حزن رمادي رقيق .. هل تمزحون ؟

قالوا : وهل هذه امور نمزح فيها ؟

قال الضابط « وقع هنا » ..

امتدت يدي واخذت الخطاب .. خفيف .. ورق شفاف ..وضعته في جيبي حتى بعد خروجي من عند الضابط .. فلتظل هذه الحيرة .. لحظة غريبة .. لم اقرأه بعد ثوان من وضعه في جيبي .. لم اتلهف على فتحه .. قبل قراءته اردت اجتياز فترة من التفكير فيه .. في من سيكتب لي بالانجليزية ؟ في اي شخص اعرفه يعيش في مدينة اختتام بريدها غريبة عني مجهولة لي .. من .. من .. ؟ منذ اول لحظة دست فيها بقدمي الارض الصفراء .. تنفست هواء الليل المسجون .. من هذه اللحظة التي مرت في يوم من ايام سنة انقضت وجرت وراءها اربع سنوات لم تصلني ورقة من قريب او بعيد .. من عدو او صديق .. ابي لا يعرفني .. هكذا قال .. انا بريء منك دنيا واخرة ، بريء منك الى يوم الدين .. لا انت ابني ولا اعرفك .. ولينقعك الطريق الذي تمشي فيه .. امي لا تستطيع ارسال خطابات لي .. لا تكتب .. ولا تقرأ .. لا ترى ، لا تسمع .. لا تتكلم .. لا تتنفس .. لا تعيش .. لو كانت تعيش امي لارغمت ابي على ورقة ولو صغيرة حتى كل شهر .. قالت امي مرة لا تضربه ، هذا لا تعرف قيمته بالنسبة لي. انه ابن عمري انا التي خرجت به من الدنيا ابن عمري .. ابن عمري.. جلست فوق حجر يشبه معقدا نحتته الطبيعة .. على بعد بالقرب من العنابر جنود يحومون كالحداة .. تصلبوا عندما عبر امامهم ضابط متجها الى مبنى الادارة الانيق حيث الصناديق المعدنية تطل من الجدران فتغير طعم الهواء بداخله .. نفضت يدي .. وأخرجت الحروف الدقيقة الرفيعة المائلة ..

زميلي في المطبخ .. بحث عني ولم يجدني ثم رآني جالسا فوق الحجر ..

واسرعت اجري واناديك .. ولم تلتفت الي .. انت المسئول عن المطبخ المفروض ان تكون اول الحاضرين .. عندما ظللت صامتا ورحت تجري قال فجأة ..

ـ بالخطاب شيء هام آه ؟

اهتز رأسي ولم اتكلم ولم يتكلم . وازدادت صفرة السماء عندما دخلت الشمس في الجزء الاخير من رحلتها . شعوري بفراغ السماء في اللحظات السابقة للمغيب يشتد ويقوى ممهدا الطريق لشعور بالضيق يقوم شيئا فشيئا كلما اسودت السماء . كل شيء حزين مثير للاسى . زملاء يجلسون بالقرب من اسوار عالية تعلوها كتل من سلك لا ينفذ منه فأر . واكشاك خشبية مرتفعة على ابعاد متساوية يتحرك جنود بداخلها ملوحين ببنادقهم وكشافات ولا شيء الا الصحراء . اخرجت الخطاب وعدت اقرأه .. من بلاد بعيدة لا تعرف انت كم من المسافات تفصل بينك وبينها اكتب لك . من بلاد سحيقة البعد في شمال الدنيا ومن قرية صغيرة كل ما فيها يكتسي الان بالبياض لان الشتاء عندنا قد بدأ منذ شهر ولن تذوب الثلوج قبل شهور ،والحقيقة انني تعودت على رؤية الثلج ولهذا انتابتني رغبة في الا يذوب. ولست ادري أن كنت قد رأيت الثلوج من قبل ام لا وعلى قدر معلوماتي فبلادك دافئة واي جمال في بلاد لا تختفي الشمس عنها يوما واحدا .. السمت معي ؟

ـ لماذا لا ترد عندما اناديك ؟

ـ ابدا .. اقرأ هذا الخطاب ..

ـ بمجرد انتهائك منه تعال بعد العشاء ، سنغني ونقول شعرا ..

ـ طبعا ساجيء ..

ـ لا تنس نفسك ..

استدار مبتعدا . وهب هواء بارد له ملمس على الوجه كالكفن . بارد يقشعر له البدن .. فرفع كرباج من بعيد .. جندي يلهو .وارتفعت ضحكات خافتة طواها الهواء وعبر بها الاسوار لتذوب في الرمال .. وكم اود ان ترى تكسر الثلوج وذوبانها . وكم ارغب لو تسمع قرقعة الجليد عندما يتحطم مع تباشير الربيع .

عدت انظر الى الاسوار . وحامت رائحة ارز يحترق وقالت امي : الجيران مساكين مثلنا يطبخون الارز بالزيت . قلت هل نطبخه نحن بالزيت يا امي ؟؟ قالت : طبعا ومن هم الجيران ؟ الا نسكن في بيت واحد ؟؟ انني آسفة قد اكون آلمتك بهذا الوصف لذوبان الجليد لانني اعرف انك مقيد لكنني احترمك جدا .. ولا اعرف هذه المبادىء التي قيدوك من اجلها وربما لا أميل اليها لكنني احبك ، واحن اليك والى من معك فاي شيء اعظم من ان يسجن الانسان لاجل مبادىء يؤمن بها. انني فتاة من الاف يعشن في بلاد الثلوج البعيدة عنك ولن تراني ولن نتصافح بالايدي ولو لم اقرأ اسمك في نشرة الجمعية التي انتمي اليها لما سمعت عني ابدا ابدا .. كذلك انا لا اعرف عمرك ولا سنك ولا اوصافك.لكني اعرف انك لا تمشي في الشارع كما تشاء،ولا تأكل كما يجب ولا تنام كما ينبغي لانسان أن ينام . واعرف انك اذا رغبت في رؤية اهلك لن تراهم كذلك صديقتك او زوجتك .

نظرت ناحية عنابر النوم . نهضت ومشيت الى زملائي المتجمعين في حلقة دائرية كبيرة .. نظرت الى الشمس التي ترحل كيوم انقضى .. لونها احمر غريب . كأني لم ارها الا اليوم فقط وقفت اتاملها . من زمان في كتاب معلم القراءة كانت الشمس لها عينان وانف وفم .. كالقمر ، لكنها انثى . عندما مضت عشرون سنة لم امسك فيها ورقة من

اقترب مني الضابط متمهلا تتقدمه نظراته اللزجة الزيتية تلوث الهواء بالمكتب ..

ـ العسكري رآك .. فما الداعي ؟

ـ لم تكن معي ورقة واحدة بها ما تخشونه ..

ـ نحن لا نخشى شيئا .. اذا ظننت انك ستستمر على كذبك ساسلخ جلدك وارميك من فوق السور الى الضباع .. وكلب وراح ..

لمعت العلامات الحمراء على ياقتي قائد السجن .. شعرت باعياء والم في ظهري .. كانت صلعته براقة كحذاء نظف بعناية وآلمتني اصابع قدمي ..

ـ طيب انا معك انه لم تكن معك أوراق ، في اي شيء كان كل واحد يقرأ ؟

ـ في الخطاب ..

ـ اقول في اي شيء كان كل واحد منكم يقرأ ؟؟

ـ في الرسالة ..

ـ كلكم .. اه ؟

ـ كلنا ..

قال كلاما كثيرا .. قال كلاما اكثر .. ادار غطاء رأسه بين يديه وقال كلاما اخر اكثر من الكلام الكثير الذي قاله والكلام الاكثر الذي قاله وقال في النهاية : زملاؤك اعترفوا بنوع الورق الذي كنت توزعه عليهم او كنت تقرأه معهم ..

ـ انت تكذب ..

ان اعرف أساليبهم .. ان اعرف انهم لا يصدقون .. ان اعرف كيف يذبحون الفريسة ببطء .. ان ادرك انهم يريدون سحقي .. ان لا توجد اوراق أسأل عنها .. صحت :

ـ كذاب ..

نظر حوله ثم الى الضابط الاقل منه رتبة .. قذفني بالحيرة .. لم اعد ارى .. هبطت كف ثقيلة على عنقي واختلطت اشكال براقة وصور لامعة امام عيني .. قالت امي يا بني تعال اكتب لك حجاب لاني اعرف الام الصداع .. ومرت بيدها على جبيني .. قلت لكنه يؤلمني تسبقم بقع بيضاء امام عيني ثم الم شديد في ناحية واحدة من رأسي يا امي .. جاءني ثلاث مرات وصرخ في وجهي :

ـ ساحرقك على نار عيدان الكبريت اقوى منها ..

ويخرج صاحب السجن .. تلمع فوق كتفيه علامات حمراء وزخرفة تشبه السنابل على غطاء رأسه .. البرد في سجن السجن .. الحشرات الرطبة الطرية ملمسها مقزز تحبو فوق ساقي ولا اقدر على طردها .. ذراعي ثقيلة منتفخة كقربة .. اصوات احذية تروح وتجيء والليل لا ينتهي ابدا .. هنا لا توجد طاقة يدخل منها خيط من ضوء الشمس .. كدت انسى الاحساس بطعم اشعتها .. في فناء المدرسة كانت سيقاننا رفيعة كعيدان الخيزران .. وملابسنا ممزقة وقاماتنا قصيرة ولا نأكل كما يأكل الاخرون وتسقط فوق الفناء وتحاصر الظلال الرمادية اشعتها في رقعة ضيقة تتكوم فيها كلنا ويخرج الناظر .. يدق الجرس .. نعدو الى فصولنا .. لا بد ان هذه البلاد البعيدة بها مدارس للصغار .. للبنات .. للاولاد .. ومعلمة القرية ومعلمها .. بالتأكيد تلقت تعليما جيدا وقرأت والا لما استطاعت التعبير بمثل هذه البساطة .. لا اعلم اين الخطاب الان .. لا استطيع ان ارى واحدا من زملائي لاسأله .. ربما وصل خطاب اخر منها .. من استلمه ؟ ربما فحصوه بالاشعة وعرضوه للمحاليل . هل تعرف هي ان كلماتها التي كتبتها في ليلة شتاء .. في ليلة يعود فيها العمال بعد يوم طويل من ازالة الثلوج خارج القرية .. كلماتها هذه تفعل ما فعلته ؟؟ ربما تجلس في هذه اللحظة الان تكتب لي للمرة الثانية .. ولم لا تكون الثالثة . ؟؟ برغم ما يحيطني من ظلمة اشعر كانها تكتب لي وتكلمني .. ربما خلفي .. ربما امامي .. ربما خارج الجدار .. هل يعرف ساعي البريد في قريتها .. في بلدتها .. في بلدتي لمن يحمل الخطاب الازرق ؟ هل يعرف الناس الذين التقت نظراتهم بنظراتي عند توقف القطار بالمحطات الصغيرة والمحطات الكبيرة اين انا الان ؟ كانهم في الخارج يملأون هذه الميادين الواقعة امام محطات السكة الحديدية في المدن البعيدة والتي تزدحم بالحركة كلما جاء قطار وتخلو فجأة بعد رحيله يروحون ويجيئون يسألون عني .. ربما يتقلب ابي في فراشه الان .. اذا كان الوقت ليلا وربما يجلس خلف مكتبه او يمشي في الشارع عائدا الى منزله لو كان الوقت نهارا . هل يذكرني ؟ واصدقائي والبعد الرهيب والثلوج البيضاء والسواد الذي يعقبه ضوء قوته مليون مليون شمعة وبحيل لحم الجفنين الى حمرة دامية مؤلمة مزعجة ..

ـ ستقول كل شيء .

اليد تطلع ثم تنزل ..

ـ لا اعرف .. لا اعرف ..

اصواتهم كانها ليست من هذا العالم ..

ـ ستقطع جسمك قطعا اكبرها في حجم حبة الفاصوليا ..

واليد تعلو ثم تهوي ..

ـ لا اعرف .. لا اعرف ..

الشوارع .. المطر .. المدارس .. الصحف .. المجاري .. البعض يمشي والبعض يركب .. الدببة في ثلوج الشمال .. القرية في خط الاستواء .. العبيد والعبيد .. يهمني ان ... العبيد والعبيد .. تصمد وتصمد .. الاف الاشياء تمر كشريط سينمائي اختل عرضه .. صاحوا وهرولت الاحذية .. انفصلت كتلة عن السواد .. حامت بقع بيضاء في رأسي كالجليد كالبرد كالصقيع .. واليد تطلع .. تنزل .. تعلو .. تهبط .. تلوح .. تصفع .. تهدد .. تلكم .. تطلع .. تنزل ..

ـ ستقول كل شيء .. كل شيء ..

ـ لا اعرف .. لا .. وان كنت اعرف فلن اقول .. لن اقول ...

القاهرة

جمال الغيطاني

صدر حديثا

البلد البعيد الذي تحب

مجموعة قصص من تأليف

ديزي الامير

« ديزي الامير وكتابها شيء واحد .. غربة الروح ، غربة النفس ، غربة الجسد ، الوان من الاغتراب يربط بينها جميعا خيط خفي يشد تطلعها الى ذلك البلد البعيد الذي تحب »

ما يكون ذلك البلد : وطن ؟ أرض ؟ بيت ؟ عاطفة ؟ حبيب ؟

قد يكون ، ولكنها مجتمعة تمثل تلك اليوتوبيا البعيدة التي تستقطب اشواق الانسانية .

ديزي الامير ، بالوداعة والهدوء اللذين تتميز بهما نفسها ، قد قالت لنا ذلك كله بهدوء ووداعة ، وتركت لمن يحبون الغوص فيما هو ابعد من المظهر الخارجي لقصصها ان ينفذوا من السطح الى عمق آخر »

سميرة عزام

منشورات دار الاداب

الثمن ٢٠٠ ق. ل

« معلم القراءة » اصبحت الشمس بلا ملامح بلا شخصية . لا اعرف ان كانت ذكرا ام انثى ؟ خيل لي انها تبتسم . ربما تشبه قرقعة الجليد صوت الرعد في ليالي الشتاء الريفية حيث الاتساع والفراغ .. اي منظر هذا ؟ نهر باكمله من الجليد يتزحلقون فوقه .. وهي في اي بيت تعيش ؟ لا بد انه بيت محدب السقف تطل منه مدخنة . زجاج نوافذه مغطى بستائر تزيحها وتلصق جبهتها بالسطح البارد للزجاج وتطل للجليد . تبتسم للقمر الفضي والاشجار الضخمة العملاقة التي لا تنمو الا في بلاد الثلوج .. كم تبلغ انت من العمر ؟ .. انا لم اتجاوز العقد الثاني من عمري .. احلامي بسيطة قوامها بيت آمن دافيء بين بيوت آمنة اخرى ، ومفاة يجلس بجوارها زوج يستريح بعد يوم عمل طويل واقرأ له كتابا ، وطفل وطفلة يلعبان حولنا كالسلام والطمانينة.. وخبز يكفينا في ليالي الشتاء حتى لا يخرج زوجي الى بائع الخبز في قريتنا ولا يجده ، فباعة الخبز عندنا يغلقون ابوابهم اذا اشتد البرد حتى بالنهار .. ينقضي ساحبا معه الضوء والنور ولون السماء الفاتح وتثقل الظلال وتغمق وتزداد الاصوات وضوحا ورطوبة وخفوتا ..تباشير الليل الاسود .. اقتربت من زملائي وجلست ونظروا الى الخطاب في يدي..

ـ خير ..

ـ اقرأ يا عثمان ..

ـ لكن ..

ـ لا تعترض .. اقرأه بصوت عال ..

النسمات تأتي مع الليل .. ولا ادري في اي وقت سيصلك فيه الخطاب .. والمصابيح المعلقة في نهاية الاعمدة الخشبية تضاءواحدة وراء الاخرى .. ولا بد انهم عذبوك وشيء مؤلم ان يضرب انسان ولا ادري باي شيء ضربوك ربما بعصا وربما بكرباج ولكنهم ضربوك بقسوة. لا بد انهم فعلوا ذلك .. العروسة كالصليب ينقصها المسامير ..عروسة تمتص الدم والعريس ينقصه اكليل الشوك .. والضرب شرعي ولا شرعي، ضربهم لنا كله .. طبعا تألمت ولن اقول لك لا تتألم لانني اذا ضربت فساشعر بالم وهكذا الانسان دائما لكن ارجو منك الا تصرخ هل صرخت؟ لا اظن انك صرخت وان كنت صرخت فاطلب منك الا تصرخ مرة اخرى.. صفع الضابط زميلنا وصاح قل اسمك يا كلب ـ همس زميلنا : اسمي عندك ، اسمي انت تعرفه ، ثم سكت ، مزقوا جلده وحطموا فوق جسده عددا لم نستطع ان نحصيه من العصي ، والضابط ينعق : قل اسمك ، قل كلمة واحدة فقط . اضربوه اضربوه قل ـ اي كلام ، اضربوه،مزقوه، قل حرفا واحدا .. اقتلوه اقتلوه.. اللسان اخرس فاللسان الوحيد في فمه لا ينطق ولو كان بفمه الف لسان لما اهتز واحد منها واحدث صوتا يشبه صوت اختراق الدبوس للورق او سقوط الابرة فوق كومة تبن.. ولكنك معي في ان الشمس التي عندك والتي لا اراها عندي الا مرات قليلة في السنة واحدة ، نفس الشمس لا تتغير واذ تختفي من سماء قريتنا اقف فوق سطح المصنع في فترات الراحة وارقب السماء المغطاة بغيوم سميكة رمادية الا انني اشعر بالشمس وكثيرا ما احدد موقعها لانها تكون هالة مستديرة من الضوء لا تخفيها اسمك السحب . وفي هذه اللحظة الان ـ والخبر ينسال من خزان القلم اكتب هذه الكلمات واسمع صياح بعض العمال العائدين بعد ان قضوا يوما باكمله وجزءا من الليل يعملون في ازالة الثلوج المتراكمة فوق الطريق المؤدي الى قريتنا . انهم يمرون امام النافذة الان . صواتهم تصلني واضحة تخفت تدريجيا كلما اتم عقرب الثواني في المنبه الموضوع امامي دورة كاملة .. قال عم محمد وهو يدفع باب البيت العتيق : كم الساعة؟قلت السادسة والنصف ، هل تأخرت يا عم محمد ؟ قال لم اتأخر كثيرا ، لكن لو مرت خمس دقائق اخرى لما لحقت عربة الشركة ولخصموا مني يوما كاملا .. وعندما كنت ابحث عن عمل قالت البنت الانيقة الشبيهة بالدمية والجالسة خلف مكتب كبير : كيف تجيء قبل الساعة التاسعة لتسأل عن اوراقك ؟ اتظن الموظفين عبيدا عندك ؟؟ .. وان كانت الايام تمر هنا بطيئة كهواء الشهيق فلا بد انك تعرف فصل الشتاء الا ان المباهج التي تجيء دائما مع قدوم الربيع وتفتح الزهر وعودة اللون الاخضر الى اشجار بلادنا الضخمة ومع ذوبان الثلوج عن الجبال البادية في الافق كخطوط وهمية ، كل ذلك يجعل الدنيا امر رائعا . ساكتب لك كل اسبوع وساحكي لك كل كبيرة وصغيرة في بلادنا ، ولا تنس ما قلته لك . والان ساتركك الى جهاز الراديو وساحاول التقاط ما يقوله العالم .. اي اصوات تسمعها في كل ليلة من ليالي القرية الشمالية ؟؟ اي هسيس لا يفارق اذنيها ؟ اي رائحة طعام تملأ البيت الدافيء وانا لم اشم هذه الرائحة التي تنبعث دائما في المساكن وكأنها تقول هنا بيت فيه ناس يأكلون ، فيه ناس ينامون ، فيه ناس يحلمون بما سيفعلونه في الغد .. اه لم اشم هذه الرائحة ، لم اتنفسها منذ اول يوم جئت فيه، لم اعرفها منذ الف واربعمائة وتسعين يوما .. اربع سنوات وشهر ؟ اي كتاب تقرأه قبل نومها ولا بد انها تقرأ ؟ .. شعرت ببرد يسري في عنقي وفي هذا الوقت عندما يجيء الليل كضيف ثقيل يبدأ البرد يزحف شيئا فشيئا كافعى تنسل من مكان لا مرئي تخفي فيه بقية جسمها وتنتصب في النهاية مزعجة مخيفة ويبدو التناقض مزعجا بين حرارة النهار وبرد الليل ..

ـ قرأت عن هذه الجمعية من قبل .. اعضاؤها يرسلون الخطابات الى اي اناس من امثالنا

ـ اين مقرها ؟؟

ـ في بلدة من بلدان الشمال .. هذه البلاد الباردة ..

ـ ربما السويد ؟

ـ قد تكون كذلك وقد تكون النرويج ..

ـ اقرأوا ختم البريد .

ـ غير واضح .. مطموس المعالم ..

ـ لا يهم اي بلدة .. المهم ان صاحبته تقطن قرية جبلية في هذه البلاد ..

ـ اعطني الخطاب يا عثمان ..

اخذوه وراحوا يقرأونه .. دارت الورقة الخفيفة عليهم وامسكتها في النهاية وبدا الصمت مؤثرا راسخا كشجر الجميز والسنط..ورفع عثمان عينيه .. وقال صوت من ورائي :

ـ ممنوع القراءة .. ارني ما معك ...

وقفت .. وقفوا ..

ـ ناولني الورق الذي كنت تقرأه ..

ـ لم اقرأ الا هذا الخطاب ..

ـ كذاب ..

صاح .. ارتعش شاربه الضخم .. تجعدت جبهته الضيقة المنخفضة الشبيهة بجبهة انسان الحلقة المفقودة ..

ـ ليس معي سوى الخطاب ..

قال زملائي واصواتهم ترتجف غضبا ..

ـ لم يكن معه ورق ولم يكن معنا فتشونا ..

ـ سنضعك في المخصوص .. نهارك اسود ..

مكتبة روكسي

اطلبوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريق الشام

صاحبها : حسن شعيب